سهل بن هرون

٢

﴿ حياتهُ السياسية ﴾ لم نهتد الى زمن انتقال سهل من البصرة الى بغداد ، وسكت التاريخ عن عهد رحيلهِ من مسقط رأسهِ ، وعن سنة ولادتهِ ، وغاية ما ذكر في ترجمتهِ انهُ كان مختصًّا بالفضل بن سهل اخي الحسن بن سهل وزير المأمون واب الفضل قدمهُ للمأمون ، ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول ان سهلاً كان من رجال الرشيد ، وانهُ دخل عليهِ وهو يضاحك المأمون فقال : اللهمَّ زدهُ من الخيرات ، وأبسط لهُ من البركات ، حتى يكون في كل يوم من ايامهِ مريئاً على امسهِ ، مقصراً عن غده . فقال الرشيد : يا سهل من روى من الشعر احسنهُ وارصنهُ ، ومن الحديث افصحهُ واوضحه ، اذا رام ان يقول لا يعجزهُ القول . فقال سهل : يا امير المؤمنين ما ظننت ان احداً تقدمني الى هذا المعنى . قال : بل اعشى همدان حيث يقول :

رأيتك امس خير بني لؤيٍّ وانت اليوم خيرٌ منك امس
وانت غداً تزيد اخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على ان سهلاً اتصل بالرشيد ، والمأمون حدث صغير . وان سهلاً كان معروفاً برواية الشعر والحديث ايضاً . وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ وحدّث فيما كان عليهِ يحيى وجعفر من البلاغة فقال ان سجاعي الخطب ومحبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلام يتصور درّاً ، ويحيله المنطق السريّ جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما . ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديههِ وتوقيعاته في كتبه ، قذمين عيين ، وجاهلين أميين . ولقد عمرت معهم ، وادركت طبقة المتكلمين في ايامهم ، وهم يرون ان البلاغة لم تستكمل الاَّ فيهم ، ولم تكن مقصورة الاَّ عليهم ، ولا انقادت الاَّ لهم ، وانهم محض الانام ، ولباب الكرام ، وملح الايام : عشق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامهم ، والمأثور من خصالهم ، كثير ايام من سواهم ، من لدن آدم ابيهم ، الى النفخ في الصور ، وانبعاث اهل القبور ، حاشا انبياء الله المكرمين ، واهل وحيهِ المرسلين ، لما باهت إلا بهم ، ولا عزّت في الفخر الاَّ عليهم ، ولقد كانوا مع

تهذيب اخلاقهم ، وكرم اعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة اعراضهم ، وتهذيب اغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم ، الى ملء الارض مثلهم ، في جنب محاسن المأمون كالنقطة (النغلة) في البحر ، والخردلة في المهمه القفر »

وهذا الكلام على ما فيهِ من حق في وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مصانعة ، وفيهِ مبالغة فارسية لم تكد تعرفها العرب على هذا الوجه ، ومن الصعب ان يتجرد المرء عن كل اخلاقهِ ، ويخرج عن دمهِ الذي ورثهُ معها عولج بالتعليم والتربية

شهد سهل هذه المأساة مأساة بقتل بني برمك وقال : ان الرشيد لما قتل جعفراً بعث اليهِ وكان سمهُ في الرقة يحصل ارزاق العامة مع يحيى بن خالد — والرقة كانت مصطاف الرشيد وكان يقول الدنيا اربعة منازل دمشق والرقة والريُّ وسمرقند — ولما حمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدي يحيى يكتب توقيعات في أسفل كتبهِ لطلاب الحوائج اليهِ قد كلفهُ إكمال معانيها ، باقامة الوزن فيها ، فلبس ثياب احزانهِ لانهُ كان على صلة دائمة بالبرامكة قال : فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديهِ عرف الذعر في تجريض ريقي ، والتمايد في طربتي ، وشخوصي الى السيف المشهور بمصري فقال : إيهاً يا سهل - من غمط نعمتي ، واعتدى ومسيئي ، وجانب موافقتي ، أعجلتهُ عقوبتي » قال : فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : « ليفرخ روعك ، وليسكن جأشك ، وتطب نفسك ، وتطمئن حواسك - فان الحاجة اليك قربت منك وابقت عليك ، يا بسط منقبضك ، و يطلق معقولك ، فاقتصر على الاشارة دون اللسان ، فانهُ الحاكم الفاصل ، والحسام الناصل ، واشار الى مصرع جعفر وهو يقول :

من يؤدبهُ الجهـ ـل فني عقوبتهِ صلاحهُ

قال سهل : « فوالله ما اعلمني عييت بجواب احد قط ، غير جواب الرشيد يومئذٍ ، فما عولت في شكرهِ والثناء عليهِ ، الا على تقبيل يديهِ وباطن رجليهِ » . ثم قال لي : « اذهب فقد اطلقتك محل يحيى بن خالد ووهبتك ما ضمتهُ ابنيتهُ وحوى سرادقهُ ، فاقبض الدواوين واحص جباءهُ وجباء جعفر ، لتأمرك بقبضهِ ان شاء الله . قال سهل : فكنت كمن نشر عن كفن ، واخرج من حبس فاحصيت جباءهما فوجدت عشرين الف الف دينار

وبذلك تبينت منزلة سهل وكيف أصبح بعد يحيى البرمكي صاحب دواوين الرشيد

ومع ما كان لهُ من الاجلال في الصدور ، خاف يوم النازلة بالبرامكة — وكانت البرامكة كما قال ابن خلدون من محاسن الدهر ، وما ذهب من عظم الدول ، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها — ان تضحهُ القالية لصحبتهِ لهم وامتزاجهِ بهم . وناهيك بهِ يومئذٍ من موقف صعب ، ولكن عقل الرشيد لا تعبث بهِ الاهواء ، وبضنُّ بعظيم من رجالهِ لاسباب تافهة فأبقى على سهل بن هرون لانهُ من مفاخر الملة والدولة . لا جرم ان سهل بن هرون كان في سياستهِ من حزب الحكومة او الحزب المعتدل ، تعزب فطرتهُ عن التطرف ويرى المصلحة في التآلف ، ويعد الخروج من سبيل الجماعة خروجاً عن الطاعة

والغالب ان عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة ١٩٣ . ولم يجر لهُ ذكر في عهد الامين مدة اربع سنين وثمانية اشهر وكسر فالتزم على ما يظهر بيتهُ ، واعتزل الفتنة بين الامين والمأمون ، حتى اذا كانت الخلافة للمأمون اصبح سهل بن هرون من خاصتهِ كما كان من خاصة ابيهِ الرشيد من قبل . وروى بعض الرواة ان المأمون كان استقلَّ سهل بن هرون . وقد دخل عليهِ يوماً والناس على مراتبهم فتكلم المأمون بكلام ذهب فيهِ كل مذهب ، فلما فرغ من كلامهِ اقبل سهل بن هرون على الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تعون ، وتشاهدون ولا تفقهون ، تفهمون ولا تعجبون ، وتعجبون ولا تنصفون ؟ والله انهُ ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يعرّف بالدواء من لا يشعر بالداء . فرجع المأمون فيهِ الى الرأي الاول . وفي ذلك ايضاً من حسن المأتى ولطف المدخل والمخرج ، مايعرفهُ المبتلي بعشرة الملوك والعظماء ، ولا سبيل الى الدخول على اكثرهم الا بهذه الطرق من التلطف والتزلف ، وان لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون ، وما ما هما في العقل والعلم والعدل . وأخرى وهو ان سهلاً بكلامهِ هذا ، ضرب الحاضرين في مجلس المأمون في الصميم ، وانزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية ، فسبهم الى السكوت في مواطن القول ، والى القصور في ميدان الامتحان والاستحجان ، ومن قعدت بهِ القريحة عن الانبعاث حين الحاجة ، كان حرياً ان لا يعاشر تلك الطبقة من الخلفاء ، وهذا من دهائهِ الكسروي

رجع المأمون عن رأيهِ في سهل ، وعرف انهُ الرجل كل الرجل في صورتهِ ومقامهِ مفاوكهتهِ وعنائهِ وادبهِ ، فقربهُ وادناهُ على النحو الذي كان عليهِ في عهد والدهِ ، وكان سهل قد اسنَّ بالطبع ، ويعرف المأمون مذ كان طفلاً عند الخليفة والدهِ . ولكن المأمون

يحترم الكبير وهو جدّ في جماع امورهِ . بيد انهُ لم يقبل باصطفائهِ الاَّ بعد اختبارهِ . وعند ما وقع عندهُ على امور تفرد بها وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرتهِ من العلماء وهم عشرة اختيروا لهُ من مئة

﴿ حياتهُ العلمية ﴾ كان المأمون مولعاً بكتب القدماء والفلاسفة . وعدَّ ذلك من آكد اعمالهِ في إنهاض مستوى العقل العربي فانشأ داراً جمع فيها كل ما طالت يدهُ اليهِ من كتب العلم باللغات المختلفة . وكانت جزيرة قبرس في ذاك العهد تشغب كثيراً على الخلافة ، وقد سبى عمال الرشيد اهلها مرة ، حتى اذا افضت الخلافة الى المأمون هادن صاحب قبرس ، وارسل اليهِ يطلب خزائن كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليهِ احد ابداً فيما قيل ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانتهُ وذوي الرأي في بلدهِ ، واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون ، فكلهم اشاروا بعدم الموافقة الاَّ مطراناً واحداً فانهُ قال : الرأي ان تعجل بانفاذها اليهِ ، فما دخلت هذه العلوم المقفلة على دولة شرعية الا افسدتها ، واوقعت بين علمائها . فارسلها اليهِ واغتبط بها المأمون . ثم صالح هذا الخليفة العالم صاحب الروم ميخائيل الثالث على ان يدفع اليهِ ما عندهُ من كتب القدماء وارسل بعوثاً من ثقاتهِ من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يأتي لملك الروم إخراجهُ من الكتب ، فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة فوق ما حُمل اليهِ من الشرق والغرب ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها وسماها بيت الحكمة فاشتغل بها سهل وكثرت مادتهُ من العلم وجعل ممهُ عالماً اسمهُ سلم كما جعل شريكاً لهُ سعيد بن هارون ولعلهُ اخوهُ او ابن عمهِ

ولا شك ان سهلاً تهيأت لهُ اسباب البحث والنظر في بيت الحكمة التي أصبح ناظرها بما لم يتهيأ لغيرهِ الوصول اليهِ . خصوصاً وهمة الخليفة منصرفة اي انصراف الى ترجمة كتب الفلسفة والعلوم والصناعات من اللغات الرومية والسريانية والفارسية والهندية . لا يهنأ لهُ بال حتى تغبى المكتبة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا ، على ما هي تامة في علوم الدين ، وقد كان شرع بالنقل عن اللغات الاخرى الأمويان العظيمان خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز في دمشق خلال القرن الاول وثنى بذلك في بغداد الخليفتان العباسيان المنصور والمأمون في القرن الثاني

اتسع الأفق امام عقل سهل ، واستكملت امامهُ عامة ادوات النبوغ ، ولم تقف بهِ الهمة عند الاخذ من كتب الفرس ، والفارسية لغتهُ الاصلية ، بل تعدتها الى الاخذ

من كل ما طاب لهُ من ضروب المعارف البشرية ، خصوصاً وانتقالهُ الى بغداد بعد البصرة جاء متمماً لهُ بغيتهُ ، وكان اختلاطه برجال الخلافة ، وكانوا من كل صنف ونحلة وجنس ، معواناً لهُ على الكمال وظهور جوهر نفسهِ . وقد يستفيد المرء بالعشرة والتلقي ، ما يستفيد من النظر في الكتب ، وتصفح دواوين العلم ، ومصاحف الفضائل

وذكر الصفدي ان سهل بن هرون تولى خزانة المأمون وتولى خزانة الحكمة لهُ ، اي انهُ كان لهُ منصبان ، الاشراف على خزانة المأمون اي خزانة كتبهِ الخاصة ، والنظر على دار الكتب التي سميت دار الحكمة او بيت الحكمة . وكلا العملين عظيم في بابهِ ولكنهما من نمط واحد . وفي ذلك ما يشعر بان المأمون لم يكن يعبر عليهِ في قصورهِ ، ولا يتنعهُ متهُ انصرافهُ الى المصالح العامة فقط ، او انهُ لم يرَ الكفاءة المطلوبة في غيرهِ ليتولى هذين العملين

﴿ نثره وشعره ﴾ ان النزر القليل الذي وصل الينا من كلام سهل بن هرون يهيء لنا السبيل الى الحكم عليهِ في بلاغتهِ ورجاحتهِ وعلمهِ ، وكلام المرء عنوانهُ ومرآتهُ ، بهِ تعلم ميولهُ ومنازعهُ ، وتستخرج دفائن نفسهِ ، ومن كلام لهُ في كتابهِ تملة وعفرة : « أجملوا اداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ، قبل الذي تجودون بهِ من تفضلكم ، فان تقديم الفاضلة مع الابطاء في اداء الفريضة ، شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومقصر بالتدبير ، ومخلٌ بالاختيار ، وليس في نفع تحمد بهِ عوضاً من فساد المروءة ، ولزوم النقيصة » . وهذا مأخوذ من قولهِ في يحيى بن جعفر :

عدو تلاد المال فيما يتوبهُ سموحٌ اذا ما منعهُ كان احزما
مذلل نفس قد ابت غير ان ترى مكاره ما تأتي من العيش مغنما

وكتب الى صديق لهُ أبلَّ من ضعف : « يلتقي خبر الفترة في إلمامها وانحسارها ، والشكاة في طولها وارتحالها ، فكاد يشغل القلق بأولهِ ، عن السكون لآخرهِ ، وتذهل الحيرة في ابتدائهِ ، عن المسرة في انتهائهِ ، وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياحاً للاولى ، وارتياحاً للاخرى »

دمشق محمد كرد علي